نـافـذة

خراب روح ووطن يبقى

ويتعربش على قاسيونها.. يرتبط بكل حجر، ينهل من كل قطرة ماء بين حجرين، يعرّض روحه للشمس القادمة من قرصها المنير، ويسرح في الشعاب متأملاً الخال الملتصق بروحها لا الجسد، ويعبّ من هوائها وأنفاسها وريقها الريّان.. تخشى الشام أن يراها مانحة، ما أكثر الحسّاد الذين ضنوا على أبنائها فرموها بما لا تستحق..

ينهض متجاوزاً دماراً.. يخطو خطوات نحو المطلق، هناك كان درس الإنسان الأول، ويا للدرس من غراب يعلمه كيف يواري سوءة أخيه.. على أرضها وبين حجارتها يقولون إنه قتله.. ترك دمه يسيل على الأرض ويسقي الصخر، وهو لا يعبأ به، وحين التفاتة منه أصدر الغراب صوته المجرّح بالغضب، ومن يومها كان الغراب رسول ستر، وبقي صوته مجرّحاً بالألم والخوف والغضب.. صرخ الغراب، وربما ضربه بجناحه ليعلمه.

نظر أبونا فكان الغراب يواري قتيله، وقتيل الإنسان بلا مواراة، تركه أخوه لتنهشه الطيور.. الغراب علمه فستره، ومن يومها.. وعلى أرضها سعى العابد يرشف قطرة قطرة من مائها المنهمر، من نبعها الفيّاض، من بحة صوتها المرتجفة باليقين المطلق، من نبرتها الثابتة بالخوف من الافتقاد، فتضم إنسانها إليها لتخفيه عن الأعين، ولكن هل يخفى حقيقة؟ هل بإمكان الملتصق دهراً بمن أحب، بشامه أن يكون رفيقاً لهذه الدرجة فيختفي عن أعين الرقباء؟

الفراخ تخافهم وتخاف عليهم!

الدراويش تحتويهم وتحدب عليهم!

بناتها لم تشأ أن يكنّ كبنات المعتمد يغزلن للناس ما يملكن قطميرا..!

حتى الجرذ فيها يناله اهتمامها!

يتعربش وتخفيه

وتندار إلى الأعداء!

لكنها تريده أن يظل متعلقاً

ذات صباح كانت

وذات مساء طبعت قبلتها

وذات لحظة فطمته عن كل شيء

لم يعد للماء طعم في غير جداولها

لم يعد الانطمار ممكناً في غير جدائلها

ويرقب قرص الشمس بعينين مرهقتين

يغلبه الدمع

وهي بوجهها تنحاز إلى الأعداء

تخاف الأعداء

لم يبلغها اليقين بذاتها

لم تقنع بالمنطمر فيه مذ واراه الغراب!

تجهش ويمسح دمعها

تريده مصلوباً على بابها وهي تمسح وجهها

تجلو حسنها ويرتاب بها

أأنت حقاً من احتضن شيطناتي؟

وحين يدركه التلف

تحين منها التفاتة

لكنه في عالم آخر من الخيبة

يا له من جاحد لم يتسمّر بانتظار التفاتة

يا خراب الروح!

لم تكن الزرقاء واليمامة بمستواها

لم تشأ أن تلتفت وترى

طغى دم ورماد

وكان خراب روح..

تسع.. ودقيقة واحدة

والخيبة تسعى بخراب روح

كل عام وشامنا كعبة الحب

ولها افتداء الذبيح.

إسماعيل مروة

الفن المعماري ودلالات الحضارة السورية

قاعات غاية في الفن وخطوط للزمن وزخارف تمثل قمة الإبداع السوري

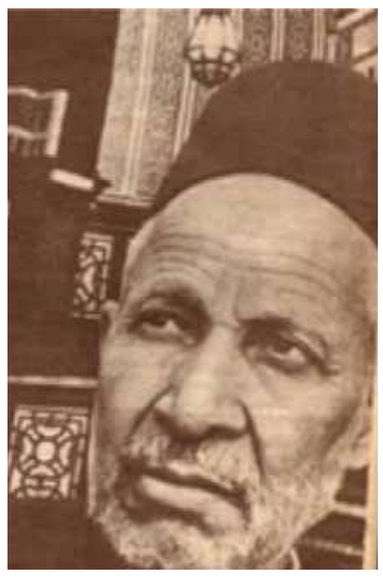

أبو سليمان الخياط

نبيل تللو

عبَّرت الشعوب عن نفسها –في الفترات التاريخية المختلفة– من خلال نشاطاتها الحضارية في الفنون والآداب والعلوم بمختلف أنواعها، غير أن الفن المعماري يبقى من أغنى الدلالات على تقدم الشعوب ورقيها. وإذا كانت الحضارة هي نتاج شعب، في مختلف مجالات الحياة، فإن الفن المعماري تجسيدٌ لكلِّ المفاهيم، واختزالٌ للقيم والمعتقدات والثقافات الخاصة بأي حضارة.

في هذه المقالة سوف نتعرف على أحد المباني التاريخية بدمشق، الذي يدلُّ على فنٍّ معماري محلي ومتميز، صمم وشيد بأيدٍ محلية، والذي ما يزال ينبض بالحياة منذ ثمانين عاماً، وهو مبنى مؤسسة مياه عين الفيجة، راجياً أن يتذكر كرام القارئات والقراء ما نسوه، وأن يتعرفوا على ما لا يعرفونه.

تكمن أهمية بناء مؤسسة مياه عين الفيجة، الذي بني بين عامي ١٩٣٧–١٩٤٢، وأُلحق به حديثاً إلى الشرق منه مبنيان إضافيان نتيجة توسع الأعمال، وتشغله حالياً «مؤسسة مياه الشرب والصرف الصحي في محافظة دمشق»، في أنه من أوائل الأبنية التي صُمّمت ونُفِّذت بأيدٍ عربية سورية، فالمصمم المعماري هو المهندس عبد الرزاق ملص، الذي وضع مخططات البناء ونفَّذه، والصانع المبدع في التفاصيل الزخرفية الخارجية والداخلية هو الفنان محمد علي الخياط، الذي كان يُعرف بـ: «أبو سليمان»، فضلاً عن أن المؤسسين للمشروع هم مجموعة من الوطنيين المخلصين على رأسهم السيد «لطفي الحفّار» الذي صار رئيساً لمجلس الوزراء السوري فيما بعد، فكان البناء متميزاً في طرازه، وأعطى مثالاً على فنٍّ معماري محلي أصيل أظهر التأثيرات الثقافية والاجتماعية والعمرانية المختلفة في تاريخ إنشائه، وأظهر بوضوح عملية المزج بين التراث والمعاصرة، ويُعَدُّ من أولى المحاولات في إيجاد بدائل للبناء التقليدي اعتماداً على تقانات البناء الحديث، ما أدى فيما بعد إلى تطور الطرز المحلية، وصار حلقةً في سلسلة الأبنية التي بُنيت في ثلاثينيات القرن العشرين كمبنى المجلس النيابي ومدرسة التجهيز.

في أوائل القرن العشرين قام الوالي العثماني ناظم باشا بجرِّ مياه عين الفيجة إلى دمشق عبر قساطل معدنية، وأقام أربعمئة سبيل في مختلف الأحياء السكنية لتأمين مياه الشرب النقية للسكان، وتصل المياه إليها من خزانين بُنيا في سفح جبل قاسيون يضخان الماء بمعدَّل ساعتين يومياً في الصباح وساعتين في المساء.

وبين عامي ١٩٢٢–١٩٣٢ جرى تنفيذ مشروع متكامل لجرِّ مياه الفيجة لدمشق، بإشراف عدد من رجالات دمشق، وكان لا بُدَّ من إشادة مبنى ليكون حاضناً للجنة مياه عين الفيجة.

ارتكز مبنى لجنة مياه عين الفيجة على نظام البناء العثماني، واستمد بعض بنوده من نظام البناء الفرنسي، حيث كانت سورية قد خرجت في تلك الفترة من الاحتلال العثماني، لتدخل تحت الانتداب الفرنسي. شُيِّد المبنى على رقعة العقار رقم ١٣٧٠ الواقع غربي شارع النصر وسط دمشق، إلى الشرق من ساحة محطة الحجاز للقطار، متوسطاً بين جامع المولوية من الجهة الغربية، وجامع تنكز من الجهة الشرقية. وأظهرت الوثائق الخاصة بالبناء المؤلفة من رخصة البناء والمخطط المصدَّق من الدائرة الفنية لمحافظة مدينة دمشق الممتازة، ومخطط تصحيح الأوصاف للبناء في عام ١٩٤٠، المساحة الفعلية للبناء والوجائب المحيطة، وراوحت أبعاد البناء الكلية بين ٢١م على طول الواجهتين الأمامية والخلفية، و٢٣م على طول كلٍّ من الواجهتين الشرقية والغربية للبناء، متَّخذاً شكلاً مربعاً تقريباً، على حين بلغت أبعاد الوجيبة ٢٨ م طولاً، وعرضاً ١٠م.

إذا وقفنا أمام المبنى على بعد معقول، نشعر للوهلة الأولى أنَّنا أمام بناء مهيب، له تقاسيم وملامح البناء العربي الأصيل، الجبهة والقلب والجناحان كلٌّ ذلك متكافئ، وهو مختومٌ في الأعلى بطنفٍ متوَّج بزخارف مسننة رشيقة متماثلة ومتناظرة ومتساوية، الألوان متناسبة ومتسقة وتميل إلى الرشاقة والزهو.

يتكوَّن المبنى من طابقٍ أرضي يرتفع عشر درجات عن مستوى الرصيف الخارجي للبناء وتوصل إلى المدخل الرئيسي للمبنى، ويفصل بين الدرجتين الخامسة والسادسة فسحة. ينفتح باب الدخول على بهوٍ عام واسع تتوزع على جوانبه غرفٌ صغيرة تُستخدم مكاتب، وأعمدة دائرية، ويحيط به رواقٌ علوي بارز مطل على البهو، وطابقٌ ثانٍ يعلوه سقفٌ عالٍ مصنوع من الخشب والزجاج، ويتخلل النور من نوافذ جانبية ترسل الضوء بشكلٍ متكسِّر ومتدرج إلى الأسفل عبر سورٍ مشبكٍ. وتتميَّز القاعة الرئيسية، وهي قاعة لجنة عين الفيجة، بغنى زخارفها ورشاقتها وجمالها، وأمامها تحفة فنية تُعَدُّ آيةً في فنِّ الترخيم والتجذيع، وهي فسقيةٌ لطيفة تحيط بها حصيرةٌ من الرخام المجدَّع قوامها أشكالٌ هندسية ونجوم وخيوط تتشابك فتؤلف لوحة ملونة رائعة.

> محمد علي الخياط «أبو سليمان» وقد وضع لمسات إبداعه في هذا المبنى وحوله إلى تحفة أثرية

هذا هو الوصف العام لمبنى مؤسسة مياه عين الفيجة، غير أن أكثر ما يلفت النظر فيه هو استخدام العناصر الفنية من حقبٍ زمنية مختلفة بشكل يتلاءم والذوق الفني، فإطار باب القاعة الرئيسية في الطابق الثاني من الفن الكلاسيكي أو البيزنطي، وهو مقتبس من باب قصر الحير الغربي المعاد إنشاؤه في المتحف الوطني بدمشق. ويعتمد سور الطبقة العليا على الفن العباسي والفاطمي، وزيد عليه مستحدثات الفن المملوكي بالتطعيم والترصيع. واستخدمت أشكالٌ نجمية في السقوف والأبواب مقتبسة من الفن العربي في العهد الأيوبي. الخيوط الزخرفية والألواح الرخامية المجدَّعة في الواجهة الخارجية مستمدة من فن العهد المملوكي. البوابة الكبرى الخارجية متأثرة بفن العهدين الأيوبي والمملوكي. مجموعة النوافذ الثلاث لها أمثالها في الفن الأندلسي والمغربي. وهناك الفسقيات المستمدة من الفن العربي منذ العهد الأيوبي والمملوكي حتى أواخر العهد العثماني، وهو فنٌّ عربي أصيل ازدهر خاصةً ببلاد الشام.

وممَّا يلفت النظر في المبنى اللوحات العديدة المكتوبة بالخط الثلث والكوفي، وتتضمَّن آيات قرآنية مثل: «أفرأيتم الماء الذي تشربون، أأنتمْ أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون». وعبارات جميلة ولافتات إرشادية، ومنها لوحة مستطيلة فوق الباب الرئيسي كُتِبَ عليها «لجنة مياه عين الفيجة»، على يمينها كُتِبَ: «أسست عام ١٣٤٣ هجرية»، وعلى يسارها «سنة ١٩٢٤ ميلادية»، وكل اللوحات كتبها الخطاط الشهير «بدوي الديراني».

ختاماً أقول: بوركت أيدي السوريين التي بنت هذا الصرح المعماري المميز، وبوركت جهودهم التي حافظت عليه سنوات طويلة، حتى إن أقلَّ ما يوصف به هو أنه كلمَّا ازدادَ عمراً، ازداد شباباً وريعاناً، وكلما مرت عليه السنوات، تألقَ وتوهَّجَ.

«الطيور الذكيّة» تحلّق في مسرح الحمراء

الحيلة البسيطة والحكاية المعتمدة على الحيوانات الناطقة قربتها من «كليلة ودمنة»

أحمد محمّد السح

يعودُ مسرحُ الطفل إلى مواسم العيد والصيف مع مسرحية «الطيور الذكيّة» لمخرجته الممثلة «بثينة شيا»، التي منحت صوتها للطفل في صندوق اقتراع الفن طوال تجربتها الفنية، فهي التي قرأنا اسمها صغاراً على شارات برامج الأطفال والتي أحببناها ولفتنا صوتها الخاص في شخصيات مميزة للطفل منها «آش كيتشام» في البوكيمون، أو شخصية «إيكوسان» في البرنامج نفسه أو هزيم الرعد وغيرها. هي التي توصي الجميع بمقولتها التي ثبّتتها على بروشور المسرحية «أيقظ الطفل الذي في داخلك» هذه التوصية التي نحتاجها في كل تفاصيل حياتنا لا في العمل مع الطفل أو لأجله فقط. «بثينة شيا» التي اختارت مجموعة من الشباب والشابات ليكونوا معها في كل تفاصيل المسرحية، ربما أرادت أن تقول إنها تريد العمل مع الأطفال الذين قدمت لهم أعمالها من قبل وتريد أن تتشارك معهم اليوم المشوار على خشبة المسرح ليحكوا حكاية «الطيور الذكيّة» لأطفال اليوم، فالفن مسيرة متكاملة تتناقل من جيل إلى جيل.

بثينة شيا

تحكي المسرحية قصةً خياليةً مستقاةً من أسلوب الحيوانات الناطقة (أسلوب كليلة ودمنة المعرف) لتقديم العبرة في أجواء من الرقص والتفاعل مع الأطفال الذين غردت ضحكاتهم وفاقت زقزقات طيور المسرحية الذكية، المسرحية التي ألّفها «صابر أبو راس» قدمت الحيلة البسيطة التي تتعامل معها الطيور للوقوف في وجه الخطر المتمثل بالصياد «ميخائيل صليبي» وشخصية الحمار اللطيف الذي أحب الأطفال شخصيته وتفاعله «كنان حاتم»، هذا التفاعل تواصل وتماسك من خلال حكمة البوم المعروفة في ثقافة الشعوب «أحمد حجازي» الذي أتقن الشخصية وأعطى أداء وازناً بيّن خبرة وتجربةً خاصة في التعامل مع الخشبة ومسرح الطفل بشكل خاص، بعد أن تعرضت الدجاجة «رولا طهماز» لموقف كاد يودي بحياتها، كل هذا وفق أجواء منّ شدّ العزيمة لتنفيذ الخطة قادها الغراب «براء السمكري» الذي أعطى للشخصية امتداداً وبعداً آخر من خلال قدرته على كسر الصورة النمطية للغراب الذي لا يحبه الناس عادةً ويتشاءمون من وجوده مما جعل مهمته صعبةً في أداء هذه الشخصية، في حين تمكّن الطاووس «يزن زيود» من جذب اهتمام الأطفال بلباسه الملون وحركاته الاستعراضية الخاصة، وهو ما نجحت به مصممة الأزياء والديكور «ريم الماغوط» وخاصة مع شخصيات لفتت ألوانها عيون الأطفال وهفت إليها قلوبهم تحديداً مع أداء استثنائي قامت به شخصية الببغاء «مريانا حدّاد» التي منحت بصوتها العالي النقي للشخصية جماليةً بارزة وأثارت صخباً أحبه الأطفال وباتوا يسعون إلى تقليده، أما المهمة الصعبة فكانت تقع على عاتق العصفورة «ألمى ناصر» التي بدا أن تقديم ثيمة أساسية لصوت العصفور متعباً لكنها تمكنت من إيصاله بأبسط الطرق فكان هدوء أدائها لافتاً في مفارقة خاصة عن حركة العصافير وصخبها الذي نعتادهُ في الطبيعة، كل هذه الأجواء أحاطها عدد من الأغاني التي تشكل ركناً أساسياً في مسرح الطفل، فالتفاعل مع الأغنية يعتمد على بساطة الألحان وقربها من ذهن الطفل واعتمادها على كلمات فصيحة تعطي العبرة والحكمة بشكل غير مباشر وفج، فكانت الأغاني مرجعاً للأطفال يصفقون لها مع أهاليهم مع سعي منفذة الصوت «ريمان أمين» لتجاوز بعض حالات الخلل التقني التي قد تتسبب بها مكبرات الصوت واختلاف أنواعها وميزاتها، رغم أنها اللعبة الأبرز في تحقيق نجاح مسرح الطفل، فالطفل في النهاية قد لا تهمّه عمق الحوارات بقدر ما تبهره الأزياء بألوانها والأغاني بألحانها وهو أمر متعارف عليه في بنيوية مسرح الطفل.

يعتبر الاهتمام بمسرح الطفل عملية منهجية ذات أبعاد تربوية وفنية، فالطفل الذي يشاهد المسرح سيحترمه في كبره وسيقرّب أولاده منه في المستقبل، ومن يعرف المسرح يعرف معنى الحياة ويكون إنساناً حضارياً سوياً يعوّل عليه في بناء مجتمعه وبلاده، على الرغم من أن التعامل مع الطفل هو السهل الممتنع، فمهما دبّج الكبار المقالات النقدية والتحليلات أو على العكس كالوا الشتائم لأعمال بعضهم، يبقى الطفل هو الأساس في الحكم فهو لا يعرف المراوغة ومن الضروري أن نحافظ على نقائه ونبتعد عن ابتزاز مشاعره أو حرفها، كما أنه من الأساسي أن يذهب الأهل بأطفالهم إلى خشبات المسرح ليصلوا معهم إلى نتائج وأفكار وحوارات دأب المسرح على خلقها دائماً، ومن هذا المنطلق يجب المحاولة بالوصول إلى أي طفل في أقصى قرية في سورية، وأن تتجند الخبرات والأموال لخلق جيل جديد يقدّر معنى الفن والمسرح، تصل الخشبة إليه إن لم يستطع الوصول إليها لفقره أو بعدها من حيث المسافة، وهي مسؤولية يجب أن تكون محطّ اهتمام الدولة حيث ترسل الفرق المسرحية في أرجاء البلاد لا أن تنحصر بمناسبات الأعياد أو في محافظة دمشق في مسرحيها الحمراء والقباني أو مسرح العرائس، بل أن تظهر خشبات المسرح في كل ساحة وحديقة ويقودها ناس يحبون الطفل ويعرفون أهمية دوره في المجتمع، ولديهم همّ حقيقي تجاه هذا المشروع الذي اسمه الطفل تسعى دول إلى استثمار مهاراته وتخصص له الميزانيات العظيمة التي يستحق.